موضوع الخطبة: عوائق التوبة (الجزء الثاني)

من عوائق التوبة: الرفقة السيئة

الحمد لله الذي فتح لعباده باب التوبة، ودعاهم إليه دعوة رحمة ومغفرة، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (سورة الزمر: 53)

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الإخوة الكرام،

من عوائق التوبة التي تصدّ العبد عن الإنابة إلى الله الرفقة السيئة.

أولًا: طبيعة الإنسان وحاجته إلى الاجتماع.

الإنسان مدنيٌّ بطبعه، كما قال ابن خلدون في مقدمته (ج 2 ص 341)، فهو مفطور على محبة مخالطة الناس والتعامل معهم، ولا غنى له عنهم. وقد قيل: إن كلمة الإنسان مشتقة من الأنس ضد الوحشة.

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ج 1 ص 145: "أنِسَ الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه"

وهذا يدل على أن الإنسان بطبعه اجتماعي، لا يطيق العزلة والانفراد إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارًا.

ثانيًا: الإسلام يؤكد أهمية الاجتماع والصحبة الصالحة.

لقد حثّ الإسلام على الاجتماع في الجماعات والجمعات، لما في ذلك من توثيق عُرى الألفة بين المؤمنين.

روى الطبراني عن جابر رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) قال: "المُؤمِنُ يألَفُ ويُؤلَفُ ولا خيرَ فيمَنْ لا يألَفُ ولا يُؤلَفُ وخيرُ النَّاسِ أنفَعُهم للنَّاسِ".

وانطلاقًا من هذه الحقيقة، لا بد للإنسان من أصحابٍ يأنس بهم، يعينونه على طاعة الله، ويقفون معه في أوقات الشدة، كما قيل: الصديق وقت الضيق، وربَّ صديقٍ خيرٌ من ألف قريب.

لكن على المسلم أن يحسن اختيار رفقته، فلا يصاحب كل من هبّ ودبّ، فربَّ صديقٍ في الظاهر هو عدوٌّ في الباطن، يدعوه إلى الشر ويصرفه عن الخير.

قال الله تعالى مخاطبًا نبيه (ﷺ): ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (سورة الكهف: 28).

وقال النبي (ﷺ): كما في سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "لا تُصاحِبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلا تقيٌّ".

ثالثًا: أثر الصحبة في التوبة والاستقامة

الصحبة الصالحة من أعظم أسباب الثبات على التوبة والاستقامة؛ فمن ذا الذي لا يحتاج إلى من يذكّره بالله، ويعينه على طاعته؟

وفي قصة قاتل المائة نفس، قال له العالم: "انْطَلِقْ إلى أرْضِ كَذا وكَذا، فإنَّ بها أُناسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فاعْبُدِ اللَّهَ معهُمْ، ولا تَرْجِعْ إلى أرْضِكَ، فإنَّها أرْضُ سَوْءٍ ".(رواه مسلم). ففي هذا الحديث الشريف دلالةٌ على أن من أعظم أسباب المعصية مخالطة أهل السوء، ومن أعظم أسباب الطاعة مرافقة الصالحين. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي ".(الإحياء للغزالي، ج3 ص64)

فالصديق الصالح هو من ينصحك في دينك، ويبصّرك بعيوبك، ويهديك إلى الخير، وقد قيل: المسلمون نصحة، والمنافقون غششة. أما من يخالط الأشرار، فإن قلبه يقسو، ويبتعد عن ربه، كما قال النبي (ﷺ): "الرجلُ على دينِ خليله، فلينظر أحدُكم من يُخالل " (رواه أبو داود)

رابعًا: أثر الرفقة في حياة الإنسان.

أيها الأحبة في الله، للأصحاب والأخلاء أثرٌ بالغ في حياة الإنسان، فكم من رجلٍ صحب الصالحين فاهتدى، وتغيّرت حياته، وسمت أخلاقه، وكم من آخر خالط الفاسدين، فهلك وضاع وانقلب حاله سوءًا بعد صلاح.

قال النبي (ﷺ) كما في الصحيحين: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صاحِبِ المِسْكِ وكِيرِ الحَدَّادِ؛ لا يَعْدَمُكَ مِن صاحِبِ المِسْكِ إمَّا تَشْتَرِيهِ أوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أوْ ثَوْبَكَ، أوْ تَجِدُ منه رِيحًا خَبِيثَةً".

فلنحرص -عباد الله- على اختيار الرفقة الصالحة لأنفسنا، ولنوجّه أبناءنا إلى حسن اختيار أصدقائهم، ونحذرهم من رفقاء السوء وطرقهم الخبيثة، فإن الرفيق الصالح طريق إلى الجنة، والرفيق السوء طريق إلى النار.

نسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يرزقنا توبةً نصوحًا، وأن يهب لنا من لدنه صحبةً صالحةً تُعيننا على طاعته،

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه،

اللهم حبب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان،

اللهم وفق شباب المسلمين لرفقة الخير، وجنّبهم رفقاء السوء،

اللهم تب علينا توبة نصوحًا، واصرف عنا رفقة السوء، وارزقنا صحبة الأخيار الأبرار، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين،

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.